بكونه حقل فكر ما قبل الماركسية ، فان الطابع التجريبي لهذا الفكر البرجوازي الذي نرى في فكر شيحا يتحدد في حقل النظر في العلوم الاجتماعية بوجه عام ، وفي الواقع الاجتماعي اللبناني بوجه خاص ،وفي حقل فكري تاريخي معين تتميز بنيته بكونها بنية التناقض الطبقي الرئيسي بين ايديولوجية البرجوازية وايديولوجية الطبقة العاملة · فحين يرفض شيحا النظرية ودورها في معرفة البنية الاجتماعية اللبنانية ، فهو لا يرفض النظرية بشكل عام ، ولا يرفض نظرية مجهولة الهوية ، بل انه يرفض ايضا طابعها الكوني ، من حيث هي نظرية سيرورة الانتقال الى الاشتراكية ، في طور ازمة النظام الرأسمالي العالمي · فطابعها الكوني هذا يفرض على النظر في الواقع اللبناني النظر فيه وفي حركته التاريخية ، في علاقته بهذا النظام وازمته · وهذا ، بالضبط ، ما يجب تغييبه · وهذا ما يتغيب ، بالفعل ، بالنظر فيه من موقع الطبقة المسيطرة ، وموقع الفكر الشيحاوي ·

كيف نصل من النص الاول الى النص الثاني ؟ كيف نصل من التشكيك بالنظرية والاحتكام ، الى « الواقع الحي » ضدها ، الى فرادة لبنان ، في نوعه وجنسه ؟

وضعنا النصين ، عن قصد ، معا ، جنبا الى جنب ، حتى نبين للقارىء المنطق الذي يحكم حركة الانتقال هذه من رفض النظرية وكونيتها ، الى تأكيد فرادة لبنان وبداهتها · ونسارع الى القول ان الوصول ، في الفكر البرجوازي، الى تأكيد هذه الفرادة لا يمكن له ان يتم الا بالمرور برفض النظرية ، على الشكل الذي بينا · فالرفض هذا هو الذي يجيز التأكيد ذاك · والرفض هذا يؤدي بالفكر ، كما سبق القول ، الى التجريبية · لذا امكن القول ان التجريبية هذه هي جواز مرور ضروري لتأكيد الفرادة اللبنانية · وهنا يقوم اعتراض ممكن · فالفكر البرجوازي اللبناني لا ينفرد ، دون غيره ، بالطابع التجريبي هذا الذي هو من صلب الايديولوجية البرجوازية ، بما هي ايديولوجية برجوازية · وبرغم هذا ، اي برغم هذا الانتماء الطبيعي الى الايديولوجية البرجوازية بعامة ، فان البرجوازية اللبنانية تجد ضرورة طبقية عملية في تمييز ايديولوجيتها ، كايديولوجية لبنانية ، من هذه الايديولوجية البرجوازية ، حتى تتمكن من تأكيد الفرادة اللبنانية التي هي ، بحسب مفهومها الايديولوجي ، فرادة المجتمع والارض والسماء والتاريخ والجغرافيا في لبنان ، وفرادة الانسان اللبناني ايضا ، وفرادة عقله · ليس تمييزها هذا ، بالطبع ، خروجا على الايديولوجية البرجوازية ، بقدر ما هو تمييز لها في شكل تاريخي محدد · فعلى ارض هذه الايديولوجية تتميز منها في طابعها اللبناني · وعلى ارض التجريبية تتميز · اذا السؤال هو : كيف ؟